حبٌّ من الطراز التقليدي

سَماح ذات الوجه الحسن الممتلئ بهجةً وسروراً تتنقل بين أروقة الجامعةِ بحثًا عن صديقةً تصدِّق مشاعرها وتكون لها الأم الثانية –مع ان لا احدَ مثل الأم -، وبينما هي كذلك تجد اسمها في لوحة إعلانات قسم اللغة العربية في كلية التربية ابن رشد وجدت اسمها محاطا -بالقائمة -بين حفنة من الطلاب والطالبات الذين لم ترَ وجوههم بعد، راحت تجوب أفكارها وتحلل ما سيبدو، وهي تقول مع نفسها بحوار درامي:

- هل سأجد صديقةً –على الأقل - تفهمني؟

- لا. لا توجد فتاة في عام ٢٠١٠ مثل طفولتي في هذا العمر.. نعم. إنها أنا (الطفلة البريئة) الحالمة بأجواء البيت الذي لم اتعدَ عتبة بابه إلا في المناسبات القليلة.

- لكن مالعمل؟. سأدخل قاعة الدرس لأتعرفَ على وجوه لم أرها ولم أعرف ماتخبئ خلفها.

دخلت قاعة الدرس في الحادية والنصف ظهراً –الدراسة المسائية -وإذا بوجوه تحاول افتراسها بنظرات لم تستطع تلك الطفلة أن تفسرها.

أمر طبيعيٌ، فسماح تلك الشابة جسديًّا الطفلة روحيًّا، هي الآن ودَّعت أجواء الدراسة الاعدادية والفتيات المراهقات، والآن نحو بناء مستقبل لتكون فيه عموداً يغير مجرى حياتها..

حاولت أن تجد مكاناً بعيداً عن تلكم الأنظار الفارسة، جلست في إحد المقاعد الدراسية ذات اللون البرتقاليّ، وسط ضجَّة الطلبة الذين يبدون وكأنهم يعرفون بعضهم بعضاً منذ سنوات عدَّة!

-يا إلهي كيف سأعيش وسط هؤلاء الذين لا يعاش معهم.. هل سأكون مثلهم..؟ هل سأتغير؟ هل سأودع تلك الفتاة البريئة وأتحول إلى فتاة أخرى؟

- بالتأكيد لا. فأنا سماح مازلت طفلة الهوى، مزاجية الميول، أحب أمي وأكاد لا أفارقها.. لم ولن أتغير...

راحت سماح تردد تلك الكلمات بمعزل عن الطلبة الذين بدأت كأنهم أعداء يحاولون النيل منها بأسرع ما يمكن.. لم تعلم ما الشعو الذي اتاها في بطبيعتها محبة للحياة متفائلة قدر الامكان، لا يدخل اليأس قلبها في أحنك الظروف، لكن ردة فعلها تجاه الطلاب بدأت تختلف تمامًا عمَّا كانت تعيشه مع زميلاتها.. ربَّما هذه حال الطلاب الجدد الذين يدخلون الجامعة!.

بدأت سماح تتعايش وتتأقلم مع الجو الجامعي الذي فرض عليها جبرًا ، لكن عليها بكل إذعان وسرعة أن تتقبل هذا الجو الافتراضي..

أخذت تتبادل التحايا مع زملائها وزميلاتها اللاتي تبدو الغير طافحة منهن كما تطفح رائحة العروس في ليلة دخلتها..

حاولت سماح أن تجد صديقة واحدو –على الأقل - لتشاركها لحظاتها ، في ترى أن افراد شعبتها (كروبات) يذهبون إلى النادي والى الحدائق ويبادلون الحديث والطرف..

مرت شهور وبعدها حضت بصداقة مع إحداهن لكن ما برحت ان جعلتها أختًا وصديقة وأفشت لها كل الأسرار – رغم عدم وجود الأسرار القوية -.. ومرت الأيام تلو الأيام وتحصل على نتائج تبدو لها جيدة قياسا بعدم حبِّها للغة العربية التي هي –بالنسبة لها - شر لا بد منه. وفي احد الأيام تعرفت بشاب بدى لها خلوق يختلف عن الشباب الآخرين – مع أن لا خلاف بينهم كلهم سواء -قوت علاقتهم ونشأ بينهم رابط الصداقة الحميمة ورفقاء الدرب الذين هم أكثر من الأحبة والعشاق..

كان (أنس) شابًا لطيفا ودودا في أول الأمر، ويعمل في أحد المحال التجارية، استمرت علاقتهما قرابة سنة واسابيع.. علاقة العشاق فهذه الصداقة خدعتهما ولم تدم طويلا ما لبثت ان تحولت إلى حبٍّ..!

كانت وعود أنس أن يكون معها إلى الابد ويتكأ عليها عندما يكبران وهما يشاهدان ابناهما ويتناولان البيتزا في حديقة المنزل الذي ما زال أهله يبونه منذ أشهر.. هكذا وعدها ، وهي –كالعادة - تصدق دون أدنى شكٍّ يراودها. نعم . هو الحبُّ لا رأيٌ ولا جحدُ..

مـرت فـترة علـى هـذه الحـال، لكـن فجـأة تغـير حبيبهـا الـذي بنـت آمالهـا علـى كلامتـه المعسـولة الـتي أنعشـت حياتهـا وجعلتهـا تفكـر وكأنهـا أمٌ أنجبـت خمسـة أولاد..تغـير حيـث الابتعـاد الـذي بـدأن يـداه تلـوح لهـا (هـذا فـراق بـيني وبينك).

لا. يالهي هل حقًا مايحدث؟!.

لا بـد وأنـه مجـرد كـابوسٍ وسـأفيق الصـبح واتصـل علـى هاتفـه الـذي لم يعـد يطيق رقم هاتفي..!

ما العمل؟

ظلـت سمـاح حـائرة في هـذا الموقـف وحيـدة فريـدة وكأنهـا معـاقٌ سُـلبت منـه عربتـه ووضع على الجانب الآخر من النهر، فلا يقدر العبور ولا يستطيع السباحة..

هـكـذا بقيـت حالتهـا قرابـة أيـام، نقلـت بعـدها إلى المشـفى أثـر صـدمة اعتلهـا مـن التفكير المستمر والاضراب عن الطعام..

عـادت إلى صـديقتها الـتي كانـت ترجـو منهـا ان تكـون إلى جانبهـا ، شـرحت لهـا مـا حصـل معهـا ، إلا ان صـديقتها اظهـرت لهـا تعاطفهـا معهـا.. لكـن في الحقيقـة بـدأت شـامتةً بمـا حصـل معهـا وكأنهـا تقـول في نفسـها (هـذا ماكنـت أتمنـاه لكِ)..

شـعرت بحقـد صـديقتها الـدفين، وانصـرفت وكـان لا شـيء حصـلت، أطرقـت ساعة واخذت تقول:

سـأنهي الأمـر الآن إمـا ان يعطـني كلمـة وابقـى حبيبـةً لـه، وإمّـا يتركـني وشأني!!

ذهبـت لـه في الكليـة الـتي تبعـد حـوالي (٤٠٠) مـترٍ عـن قسـمها.. بعـد إلقـاء التحيـة عليه رد عليها بعدم اكتراث ولا مبالاة

-أهلا. شجابج؟؟

- شجابني؟!.. هاي شبيك حبيبي ليش تغيرت فجأة، مو أنت الكلت ما اعوفج وما اتخلة عنج؟ مو انت الكلت اريدج ، مو انت...... واستمرت تعدد حتى كادت دموعها ان تملأ عينيها..

- إي آني ظرفي تغير هسة !

- يعني شنو تغير مثلا؟! وضَّح لي؟

- بابا ماعندي امكانية للزواج !

- ميخالف. أنتظرك سنة ، سنتين تلاثة..!

- لا ماكدر، اتزوج..

- إي دكلي شكد ابقة أنطيني كلمة أبقة ، لو اروح؟!!!

- ماأدري!!

ظلت تلك الكلمة يرددها دائما (ماأدري) وكأنه لا يفقه من أبجديته شيئًا سوى (ما أدري)!

بينما سماح انصرفت إلى اللا رجعة ، وكالعادة بابها يدق بين الحين والآخر طلبا للزواج بها.. لكنها –كالعادة - ترفض على أمل الزواج بمن تحبه..!

أصبحت الآن قبالة الزمن الذي ألقى بها في مهاوي الحب ، وقبالة أهلها الذين يلومونها بين الحين والآخر ويتساءلون عن سبب رفضا للشباب الذين يريدون الزواج بها..

تخرجت سماح من الكلية التي ما عادت تهوى كل نسمة هواء تهب منها. في العام ٢٠١٥.الذي بدى وكأنه عام شؤم عليها.. ودعت ما يسمين بصديقاتها اللاتي يتربصن بها الدائر بين الحين والآخر.. وكلها حزن وألم بما لحق بها بسبب تلك الكلية المشؤمة بالنسبة لها...

جلست بين جدران منزلها، وكأن الزمن لم يكن وكأنها عادت قبل دخولها الكلية ، وصارت لا تخرج الدار الا لاجل زيارة اقارب أو مناسبة دينية او سفرة وما شابه..

مضت الأيام بعد الأيام، إلى أن تعين في إحدى المدارس الأهلية مدرسة للغة العربية ، تلك المهنة التي –رغم تعبها - افرغتها من محتوى الحزن والكآبة، وعادت سماح تلك صاحبة القلب الأبيض وكأنه ورقة أي فور قبل وضعها في الطابعة.. عادت تملأ صفوف مدرستها براءة وحبا وعشقا وابتسامات حيرت إينشتاين ونظريته النسبية، ألغت قوانين الجذب العام و(نيوتين) أصبحت الطالبات منجذبات اليها اكثر مما ينجذب إلى الأرض بعد سقوط من ارتفاع مترين!

كانت المدرسات اللاتي يقنطن معها في غرفة المدرسين – كعادة النساء - يمتلأن حسدا ، وعلى ماذا على ابتسامتها التي تمنحها مجانًا لمن يحب الحياة ولمن كان قلبه صافيا كماء دورق..

كانت تمنح ابتسامتها كما تمنح الزهرة عطرها في ارجاء الحديقة..

تقدم لخطبتها رجل لطيف الخلق والأخلاق يعمل معها في الوظيفة نفسها..

وبوساطة رجال خيرين تمت خطبتها وهي لا راغبة ولا رافضة، وكأن الأحداث تملي عليها وما عليها سوى ان تكتب وتقرأن ما سيجري..

عمر إنَّه الشاب الذي يبدو أكثر الناس حبًّا لها.. لم تعر له اهتماما بالغا سوى السلام..

وتمنت لو تلغى هذه الخطبة التي لا تودها، بعد سماع حبيبها السابق (أنس) تهدد وتصعلك على ان يمنع تلك الخطبة ، لكن يبدو أنه يحاول ان يرد الاعتبار وكأنه يوجه لها رسالة قصيرة ليخبرها أنه يحبها لكنه لم يقبل بهذا الذي يجي ..

بقيت سماح على هذه الحال بين الرفض والقبول لخطيبها الذي مازال يرسل لها الهدايا ويسأل عنها في كل حين..

ساعدها شخص (على الفيس بوك) شخص تظنه مثقفًا وخلوقًا، حثها على ان تترك مايدعى ب (أنس) وتتوجه نحو عمر خطيبها الذي لابد منه..

وسمعت ما قاله لها، لانها تحترمه وتأخذ بنصيحته..

وبعد الاهتمام الذي قدمته لخطيبها زادها حبها وشغف بها ، مما أدى إلى ان يتزوجها باسرع وقت ممكن، كيف لا وهو يتظر تلكم اللحظات على احر من الجمر..

تزوجت طفلتنا البريئة بعمر وراحا يجولان في أرجاء بغداد الحبيبة حالمان بعطرهما الذي ملأ الشوارع، تركا اثرا في كل مكان يزورانه، في الزوراء في أبي حنيفة، في الأعظمية ، في مول المنصور....

عاشت سماح وعمر سعيدة فرحة، كان شابًّا راقيا بكل المقاييس..

أنجبت منه بعد مرور أربعة أعوام طفل يملا النفس فرحا (تيم) ذلك الطفل الذي بدأن يغار من أخته صاحبة العينين الجميلتين (ميرا).. كان تيم مشاكسا مشاكسة الولد لأبويه يحبهما كما يحبانه وأكثر..

يلعب مع ابن صديقة العائلة (لجين) ابنة صديق سماح الذي عرفته بعمر..

كان عمر ينظر إلى سماح ويقبل يدها صارخا بأعلى مايمكنه من صوت (أحبك) حتى الموت..

عاشت سماح سعيدة مع عائلتها وصديق العائلة وزوجته، وكأنها ترسل رسالة إلى العالم اجمع..

يا نساء العالم تأكدن جيدًا من الرجل الذي تودن الزواج به... فما زال هناك رجال ارجل من الرجولة ...

مع الحب..

سماح أحمد

٢/١/٢٠٢٠